سير الزمان

خواطر حول نزول
الملك ادورد الثامن
عن العرش

نظرات ومقابلات في العصر
الشرق والغرب
لسليم خياطة

فلسفة المعارضة
في نظام الحكم الديمقراطي

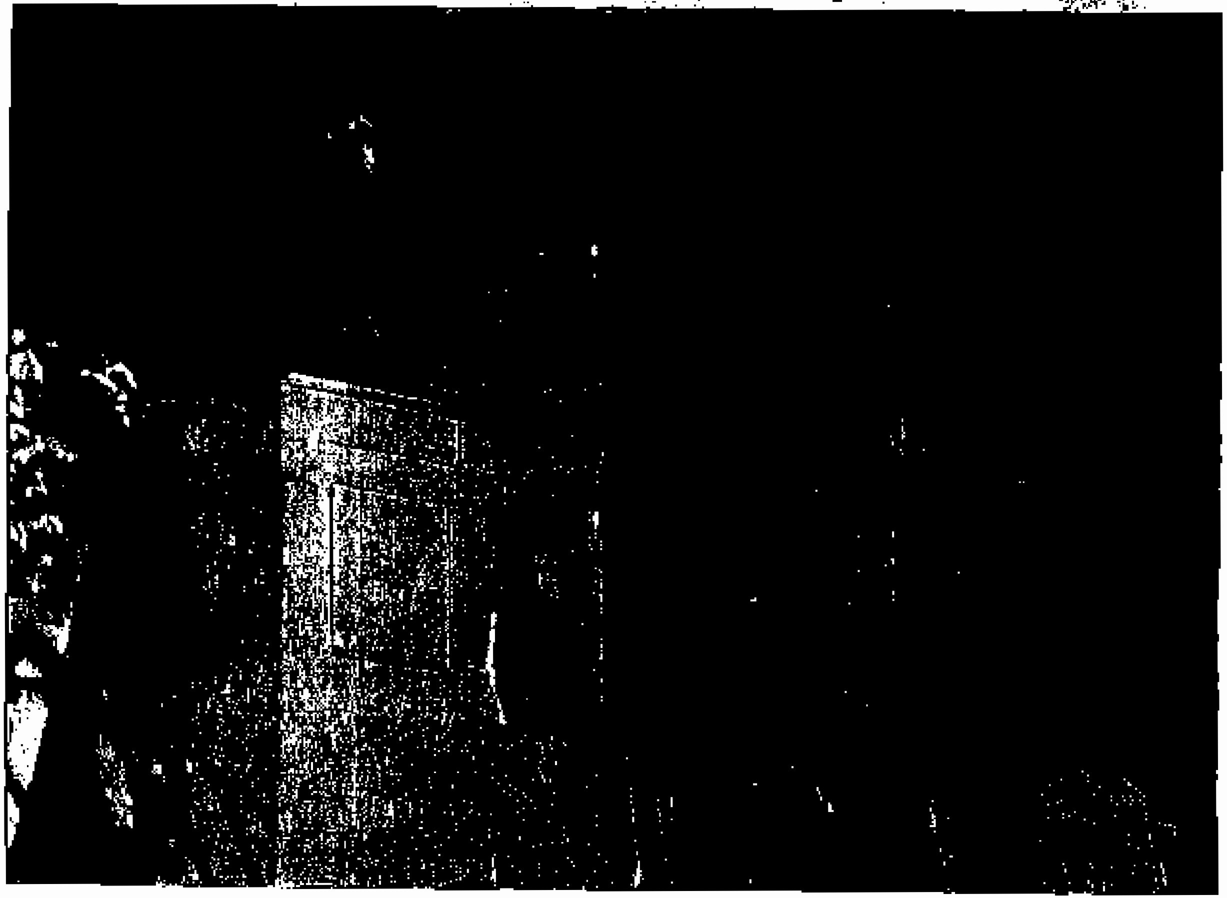

الدكتور بيارد دودج رئيس جامعة بيروت الاميركية ، فالاستاذ يوسف اقليموس رئيس جامعة متخرجيها ، فالدكتور فارس نمر باشا ، فالدكتور عبد القادر العظم مدير الجامعة السورية بدمشق ، فتمثال الدكتور صروف
[صور الاهرام]

خواطر حول زوال

الملك ادوارد الثامن عن العرش

ان الاجانب الذين يزورون انكلترا ، قلما يفهمون ما ينطوي عليه النظام الملكي البريطاني من المفارقات ، ولا سيما اذا كانوا من بلدان جمهورية . فالملك الانكليزي مجرد من السلطة بحيث لا يستطيع ان يختار زوجته الا بموافقة رئيس الوزراء ، ولكنه في الوقت نفسه له من المكانة في نفوس فريق كبير من الشعب وحياته الاجتماعية ، لا تدانيها مكانة اي حاكم بأمره في اوربا . وليس من المبالغة في شيء ان نقول ان الملك وامراء البيت المالك في انكلترا يحتلون في حياة شعبهم العامة والخاصة مقاماً لا مثيل له في سائر البلدان الملكية . بل ليس في بلدان اوربا الملكية ما في انكلترا من ولاء للاسرة المالكة وتدلّه وهيام بها . ولكن الانكليز انفسهم لا يرون هذا التناقض ، فيثيرهم مثلاً ما يرونه من تملق الالمان لهتلر ، كأنه سيدهم وكأنهم اتباع ، او ما يقال عن سعي بعض الروسيين لتأليه ستالين ، جاهلين ان موقفهم من الملك والملكة والامراء والاميرات والدوقات ، لا يختلف عن موقف الالمان والروس ، الا في المدام المسوّغ له[1]

ثم ان الاسرة المالكة في انكلترا ، على الرغم من زيارة المناجم والمدارس والمستشفيات ، ابعد من الديمقراطية الصحيحة من كثير من الاسر المالكة الاخرى . فليس بالنادر في ستوكهولم ان ترى في الحديقة العامة رجلاً مديد القامة نحيف البنية ، يحييك وقد يقف ليتحدث معك ، ثم تعلم اذا كنت لم تعرف من قبل انه الملك جوستاف الخامس ملك السويد . والمشهور عن الملك كرستيان العاشر ملك الدنمارك انه كان في حداثته كثير الاختلاط بالشعب ولا يزال . وكذلك كان الملك البرت الاول ملك البلجيك السابق ، والملك ليوبولد الثالث قبل مصرع زوجته . حتى في النمسا التي كانت قبل الحرب من اشد الامم تمسكاً بالتقاليد وقواعد السلوك الرسمي ، لا يزال الناس يذكرون الامبراطور فرنسوى جوزيف متنزهاً في الحدائق ، متحدثاً فيها مع افراد الناس ، ويذهب بعضهم الى ان هذه الذكرى من اقوى البواعث على نشاط الحركة الملكية في فينا .

ولكن هذا لا يقع في انكلترا . نعم ان اعضاء البيت المالك ، يبذلون ما في وسعهم للاتصال بالشعب من طريق الحفلات العامة كوضع الحجر الاساسي في كلية او متحف ، او زيارة المناجم والمناطق المنكوبة ، او عيادة المرضى في المستشفيات او افتتاح الاسواق الخيرية ، ولكن الشعب قلما ينسى ان حضرة صاحب السمو الدوق او حضرة صاحبة السمو الدوقة هناك . فالصلة بين البيت المالك في

(١) ملخصة عن الكاتب الاميركي وليم زوكرمن في مجلة هاربرز

هذه الحفلات موسومة بسمة من التكلف . وكأن آيتها « حوذا الملك او من ينوب عنهُ يقوم بها عليه ! » . ومن غرائب المفارقات ، ان الملك الانكليزي الوحيد ، الذي كان ديمقراطيًّا حقًّا ، واستطاع ان يتجرّد من هذا التكلف عند اتصاله بشعبه ، كان كأنهُ ظاهرة شاذّة في حياة بريطانيا الاجتماعية ، فضطرّ الى النزول عن العرش بعد حكم دام أقلّ من أحد عشر شهراً

ان الصورة الناعمة لنظام الملكي البريطاني ، ليست وليدة التقاليد المرعية في القرون الوسطى ، كما يظن ، بل هي وليدة أواسط القرن التاسع عشر على الاكثر ، ومطبوعة بطابع الملكة فكتوريا على الغالب . ان خلق هذه السيدة النشيطة العنيدة التي حكمت انكلترا أكثر من ستين سنة كان أبعد أثراً في تطوُّر النظام الملكي البريطاني ومقامهِ ووظيفتهِ ، من أسرة كاملة من الملوك الانكليز الاقحاح . كانت ألمانية النشأة والتربية والطبع ، تميل الى التحكُّم ، فلما لم تجد متنفساً لهذا الميل في ميدان السياسة ، عمدت باندفاع الموسوسين الى البحث عن منفذ فوجدتهُ في وظيفة البيت المالك الاجتماعية . لعم ان للملوك والملكات والامراء والاميرات وظيفة اجتماعية حيث يوجد بيت مالك ولكن هذه الوظيفة تنحصر في الراجح على الازياء وتمتدُّ الى الحاشية ومن يلوذ بها

اما الملكة فكتوريا فلما ادركت حدود تحكّمها السياسي ، اغتصبت سلطة مطلقة على افكار الشعب وعاداته ، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بالحياة الخلقية . ولم تحصر سيطرتها في حدود أسرتها وحاشيتها ، بل شملت بها فريقاً كبيراً من الشعب . ولو ان الشعب البريطاني ، منحها شيئاً من السلطان السياسي ، لكي ينقذ من هذا الاستبداد الخلقي الاجتماعي لكان ذلك خيراً لهُ

ان خلق الملكة فكتوريا وحكمها الطويل ، رفع آراءها في وظيفة البيت المالك من الناحية الاجتماعية ، الى مستوى التقاليد المرعية الجانب او القواعد الاساسية . فالملك بحسب رأيها ليس رمزاً سياسيًّا فقط ، بل هو صورة مثالية لما يجب ان يكون عليه سلوك شعبه

فالاسرة المالكة ، بهذا التحديد الجديد ، ليست أسرة كسائر الأسر ، لها نقائصها ومواطن المؤاخذة عليها . بل هي رمز اجتماعي سامٍ ، لا يرتقي اليه النقد . والملك الانكليزي ليس رجلاً بل مثالاً متصفاً بجميع الفضائل التي اتصف بها البرت زوج الملكة فكتوريا ، وقد نزهت عن كل ضعف . فهو زوج كامل وابن بار ووالد حكيم ومثال تام للانسان الكامل — أو هكذا يجب ان يكون في ما يبدو من حياته للعيان . لهُ ان ينحرف عن هذا الصراط المستقيم ، ولكن ذلك يجب ان يكون بمعزل عن الناس . فالمقياس ليس ما يفعله الملك ، بل ما يفعله جهراً

اما الملكة فالقلب النابض في هذا النظام ، وعليها يقع الجانب الاكبر من عبء الوظيفة الاجتماعية التي اسندتها الملكة فكتوريا الى البيت المالك . وعلى ذلك يجب ان تكون الملكة مثالاً للمرأة الكاملة كما تصوّرتها فكتوريا ، عفة وولاء ومحبة وطاعة وعلاوة على ذلك يجب ان يكون دم الملوك جاريًا

في عروقها وان يكون دماً المانياً اذا أمكن والاّ فليكن دنماركياً او يونانياً اومن دم آل رومانوف وانصافاً لرجال المال والاعمال الانكليز وهم حكام بريطانيا الحقيقيون الآن، يجب ان نقول انهم لم يتقيدوا بقيد الدم الملكي، فانهم اذا وجدوا فتاة من الارستقراطية الانكليزية او غيرها من الارستقراطيات الاوربية، قد ملكت قلب مليكهم او ولي عهدهم، قبلوها ملكة او اميرة عليهم، ولكن على شريطة ان تكون متصفة، بالفضائل الاخرى، لان الصورة الملكية الراسخة في اذهانهم، تنهار او تمحي من دونها

ولعل اقوى البواعث على رسوخ هذه الصورة، ان رجال المال والاعمال في انكلترا يحسبون الاسرة المالكة صورة مثالية لاسرهم كما يفهمونها. فالطبقة المتوسطة الانكليزية اتجهت الى قصر بكنهام قبل قيام هوليوود وذيوع الصور المتحركة. لانها رأت في بكنهام لوحة تشاهد عليها حياتها كما تودها ان تكون. الآن التاجر الاميركي يتجه بعد كدمه وكدحه، الى ما تخرجه هوليوود ليرى فيه ما يتوق اليه من مثل الجمال والحب والتسلية، حالة ان ندّه الانكليزي يتجه الى بكنهام ليرى فيه ما يبغيه من الفضيلة. فالانكليزي يحس عندما يمجد الاسرة المالكة ويسند اليها جميع الفضائل انه يمجد نفسه وزوجه. وعندما يهتف حتى يبح للاميرتين الصغيرتين، انما يهتف لبناته ممثلات فيها على نحو ما يفعل روّاد السينما عند ما يرون رونلد كولمان او جريتا جاربو او شرلي تمبل. هنا فتاة ترى في كولمان مثالاً لحبيبها، وهناك رجل يرى في جاربو صورة للمرأة التي يتمناها، وهنالك اب وام يريان في شرلي تمبل ابنتهما الصغيرة

كان ادورد دوق وندزر اقل اعضاء الاسرة المالكة الانكليزية، استعداداً للاندماج في هذه الحياة الملكية الرسمية المتكلفة، التي وضعت لها الملكة فكتوريا الحدود والقيود. الاّ ان هذا التنافر كان مقتصراً على الناحية الاجتماعية دون السياسية. اذ ليس ثمّة ما يحمل على الظن بان الملك ادورد كان يتطلع الى تخطي حقوقه الدستورية او التعدي على حقوق الوزارة والمجلس النيابي. وقد ثبت الآن، فساد القول بان نزوله عن العرش كان نتيجة نضال بين التاج والبرلمان. وذلك لسبب بسيط وهو ان الملك ادورد لم يكن يولي السياسة عناية كافية تحمله على خوض النضال في ميدانها

فالتنافر الذي قام بين خلق الملك ادورد وحياة الملك كما رسمتها جدة ابيه فكتوريا، كان محصوراً في وظيفة النظام الملكي من الناحية الاجتماعية

كان الملك ادورد للناس، طبعاً وخلقاً اقرب الى جده الملك ادورد السابع منه الى ابيه الملك جورج الخامس. حتى مراسم حياة القصر التي خضع لها ونهض بها على ارق وجه، لم تكن تخفي نزعة مستقلة فيه الى معيشة مطلقة من هذه القيود. فقد ركبت في طبيعته وخلقه عناصر، من شأنها ان ترفع صاحبها الى مقام الزعامة في ناحية من نواحي السياسة او الفن او الاجتماع، لو لم يكن ابن ابيه

ولكن ادورد ولد في قصر ، فكانت هذه القيود ثقيلة عليه ، وزاد الطين بلة ، أن النضال الدائر في نفسه ، بين نزعته المستقلة والقيود الملكية المفروضة عليه ، كان معروضاً على الجمهور . وقد اقتضت مكانته الملكية ، أن يتحرك دائماً والعيون متجهة اليه ، فكان له في شبابه وحسن سلوكه ناحية اليه . فاذا اضفت الى ذلك حاشية ، هي من ضرورات الحياة في القصور ، تطري في اخلاص وغير اخلاص وتمنى بالسخيف والجليل من الامور ، وتداهن وتتملق ادركت ان فتىً مرهف الاحساس كالبرنس ادورد لا يمكن ان ينجو من التضعضع والتحول الى آلة رسمية ، تزور وتنحني ويبسم للمصورين ، الاّ بأعجوبة

وجاءت الحرب الكبرى فكانت تلك الاعجوبة . والواقع ان ادورد وزر وليد تلك الفترة من تاريخ العالم ، التي يعرف ابناؤها باسم « جيل الحرب » . فهو مثال حيّ ، لتلك الشخصية التي وضعها نويل كاورد في احدى مسرحياته — شاب مرهف الاعصاب ، تأخذه اطوار مختلفة من البشاشة والبوسة ، والتأمل والتنقل والاندفاع ، ولكنهُ مع ذلك محبب الى الناس . هذا الجيل من الشباب ليس بالجيل الضائع كما يوصف لان افراده على الرغم مما اصابهم لا يزالون يرنون الى مثل عليا ، من السلام والمساواة والعدل الاجتماعي ولا سيما العدل الاجتماعي . وعلاوة على كل ذلك ، أنهم مخلصون ، ويمقتون الرياء والتملق ، فاذا استحكمت ازمة لم يجبنوا عن تأييد معتقداتهم والتضحية في سبيلها

ونزول الملك ادورد عن العرش ، عمل من هذا القبيل . فاننا اذا جردنا حديث هذا النزول عن ملابساته السياسية الثانوية ، تبين لنا انهُ كان عملاً روحيًّا قام به رجل ثائر على بيئة اجتماعية ، قدعتهُ منذ حداثته . ومن بواعث الاسف ان تكون النواحي السياسية والغرامية قد حجبت في هذه القصة مغزاها الحقيقي

ان نزول الملك ادورد عن العرش ، لم يكن ثورة ملك على وزرائه او برلمانه ، بل كان ثورة أعظم شأناً وأبعد مدىً ، لأنهُ كان ثورة ملك على نظام الملكية كما هو في انكلترا من الناحية الاجتماعية . انها ثورة الرجل في ادورد الثامن على الملك فيه ، على الرمز المتمثل في شخصه . ولو لم يكن الشعب الانكليزي محافظاً الى أبعد حدود المحافظة ، حتى حزب عماله ، لكان أفضى عمل من هذا القبيل الى تحول روحي واجتماعي كبير الشأن فيه

والغريب ، ان النزاع الدستوري كما قيل ، كان ذا شأن ثانويّ في هذه الدرامة الروحية . وكذلك كانت المسز سمبسن . لم يكن شأن للمسز سمبسن في هذه المسألة الاّ شأن كثيرات من النساء ، يبثنّ الجرأة في قلب الرجل ، فأقدم على ذلك العمل الخطير ، على التحرر . والراجح ان ادورد لولاها ، لعجز عن الاقدام ، ولكن هذا لا يعني ان المسز سمبسن كانت الباعث على نزوله عن

العرش ، اذ لولا هذه الثورة المضطربة في نفسه، لتخلى عن المسز سمبسن كما أراده وزراؤه وأهله أن يفعل . فقد قضى حياته شأن كثيرين من الشبان الذين خاضوا غمار الحرب الكبرى يبحث عن القوة التي تعينه على فك القيود ، الى ان اتفقت له المسز سمبسن فكتنه بتأثيرها مما يبغي . وكل من يعرف شيئاً عن هذه الانقلابات الروحية ، يدرك ان العوامل الخارجية قد تتيح لها فرصة الظهور ولكنها لا تحدثها . فالبرلمان والمسز سمبسن كان عرضين في تطور شخصية تبحث عن حقيقتها

الا أن هذا لا يعني ان هذا العمل الشخصي ، له مغزى اجتماعي . وليست هذه الثورة بالظاهرة الجديدة في انكلترا . بل ان جانباً كبيراً من أدب انكلترا ، اعراب عن ثورة دائمة في نفوس فريق من الشبان ، ولعل كارليل وبطلر وشو وولز ولورنس وهفلوك اليس في مقدمة الكتاب والادباء الذي أجادوا الاعراب عنها . وقد بدت هذه الثورة في الحياة الاجتماعية ، في اشتراكية شو والنهضة النسوية وحركة العمال . وما حدث في البرلمان الانكليزي يوم ١٢ دسمبر شبيه بما حدث في كثير من البيوت الانكليزية في خلال الجيلين الماضيين . أن ادورد وترد ليس اول الذي تحدوا صورة الحياة الاجتماعية الانكليزية كما رسمتها الملكة فكتوريا ، بل هو اقرب الى آخرهم. انهُ ليس ملكاً ذهب الى المنفى ، بل هو ملك انضم الى جيش الثوار

كانت انكلترا أسبق الامم الى تحقيق الدمقراطية السياسية . وقد سلكت الطريق المفضي الى الدمقراطية الاقتصادية منذ وضع لويد جورج ميزانيته المشهورة سنة ١٩٠٩ على وصورته والتوائه . ولكن الصورة التي رسمتها الملكة فكتوريا للملك الجالس على العرش وللملكة ، تخرجهما من كونهما رجلاً وامرأة ، الى جعلهما في نظر عامة الشعب أقرب الى الآلهة منهم الى الناس . هذه الصورة تجعل الهوة بين الملك وسواد الشعب هوة كبيرة ، واليها يرتد كثير من النفاق والتعالي في حياة الانكليز الاجتماعية ولا سيما في الصلة بين ما يعرف بطبقة الاعيان من جهة والطبقة المتوسطة وما دونها من جهة اخرى، واليها كليهما يرد القول بأن هذه الدمقراطية السياسية الكبيرة أبعد ما يكون من ان تكون دمقراطية اجتماعية .

فاذا كان نزول ادورد الثامن عن العرش باعثاً على تنبه الانكليز الى هذه الفارقات في حياتهم العامة ، واذا تمكن الملك جورج السادس بما أوتيه من الدعة الحقيقية ، والرغبة الصادقة في خدمة الامة ولا سيما في نواحي حياتها الاقتصادية والاجتماعية ، وتقرّب هو ومن حوله، من الشعب بحيث يحس الشعب انهُ منهم كما يحس الدنماركيون والسويديون — اذا حدث هذا فان أثر نزول ادورد الثامن عن العرش يكون اعظم من أثر بقائه عليه، ولا يستبعد حينئذ ان يقول المؤرخون في المستقبل ان يوم ١٢ دسمبر سنة ١٩٣٦ (يوم النزول عن العرش) كان أكبر شأناً في تاريخ انكلترا من يوم ١٦ مايو ١٩٣٧ (يوم التتويج)

نظرات ومقابلات

في العصر

لسليم خياط

الشرق والغرب

أراهما واحداً لا ينقسمان . وفي الواقع ، ليس هناك لا شرق ولا غرب منفصل أحدهما عن الآخر، فهما في تلاق دائم . في كل نقطة على الارض يمتزجان، وكل نقطة على الارض غرب بالقياس الى الشرق وشرق بالقياس الى الغرب . وليس هذا في الاتجاه الموقعي على الكرة فحسب ، بل هذا يجري حكمه على الانسان الساكن عليها أيضاً . من العبث والخرافة قولنا أن الشرق شرق والغرب غرب ، قولنا أنهما مفترقان لا تجمع بينهما صلة

ليس ثمة شيئان اثنان يتشابهان شبهاً تاماً كأن كلاً منهما هو الآخر . ولكن بين كل شيء وشيء صلة مهما اختلفا ، تضعف وتقوى تبعاً لتقارب المميزات والظروف الاصلية الجامعة. حتى بين الانسان والحجر توجد صلة ، هي صفة الوجود . غير ان بين الانسان والانسان قرابة وثقى لا تنفصم . تجعله واحداً في نوعه بأهم ما فيه وما يمتاز به — وذلك مهما تباين وأينما كان ، أفي اواسط آسيا أم في سالم ام في مجاهل القارتين الجديدتين . وان بين الشرق والغرب المصطنعين ، المشطورين كالبطيخة المعدة للالتهام ، المحدودين بحسب ما كان من تعريف الجغرافية الرسمية ، جغرافية « المدارس »⁽¹⁾ الاستعمارية وشعرائها الفقهاء — إن بين هذا الشرق والغرب بأهلها ومدنياتهما من الصلات الانسانية والاجتماعية ، من التقارب في الظروف الاصلية والكيان ، من وحدة الاصول وامتزاج الفروع ، ما يجعلهما قريبين متشابهين ، صلات احدهما بالآخر تكاد تكون من القوة كصلة اية دولة او شعب غربيين بأية دولة أو شعب غربيين آخرين . بل ان الرجعي الانكليزي و « البطاش » الياباني ربما كانا احدهما أقرب الى الآخر من الاول الى مفكر انكليزي حر ، او من الثاني الى عامل ياباني راق.

***

تربط الشرق والغرب ، على اعتبارهما الاصطلاعي الراهن ، كل عروة قوية تجعل الشبه بينهما

---

(١) اي : الفرق وأهل المذاهب والنظريات

جوهريًا وأدق من أوجه الاختلاف . اول هذه الفُرى الانسان نفسه ، وهو الذي قسم الارض الى شرق وغرب بالاستناد الى التفريق الحاصل بينه او لاجل التفريق بينه . فالانسانية كلها حلقة واحدة قائمة بذاتها ، مضروبة حول الارض ، وتقيّد كل بقعة تقع غربي الاخرى بكل بقعة تقع شرقيها . ثم بعد الانسان ، شبكة مكينة من الروابط الطبيعية والاجتماعية والوقائع التاريخية المستمرة . هي شبكة تضيع معها التحديدات المكانية الحديثة والقديمة ، ويبقى فيها المكان مطلقاً من اي تخطيط او تفريق كان يتوهمهُ ويدعو اليه أي رهط

ما الفرق بين الصيني والالماني ؟ الفرق في لون البشرة فقط . لكن هل للصيني بشرة وليس للالماني شيء منها ؟ كلاّ ! وما الفرق الجوهري بين اسكتلنديّ يعبد او يستغل إلهاً ثلاثيًّا وبين مسلم هندي يعبد إلهاً واحداً وعدة اولياء ؟ لافرق ! كلاهما يعبد أو يستغل حقيقة أو وهماً ، وهذا التباين بينهما سطحيّ يقتصر على الشكل وعدد رموز الحقيقة أو الوهم الضمني . والغربي الذي يريد البعض ان يفرقوا بينهُ وبين الشرقي على أنهُ أسمى أخلاقاً وخيالاً ، لِمَ نرى لهُ الزيادة الحقيقية في السمو ؟ فهل من فرق يُؤبه لهُ بين غارات جنكيز وتيمور وهولاكو التي نذكرها باشمئزاز لما ضحّت بهِ من مدنية ومن ملايين البشر، وبين ما ضحّى بهِ فراعنة الغرب الماضون من مدنية ومن ملايين في جحيم الحرب الكبرى ، هذا الجحيم الحقيقي الذي كنا نرى كثيرين من الغربيين الغربي المقول والاطوار يناغونهُ بألوان ملوّنة من الكلام والتلفيق ؟ هل بين أفظع ما رُوي عن تيمور من الحوادث وبين مئات الالوف من الذين قُبروا في « فردون » ما يجعل أقل تمايز بين أعمال الاولين والآخرين في الهمجية المنظمة على مقياس واسع — اللهم الا الاختلاف في شكل وسائل الابادة التي استعملت في كلا العصرين ؟ لقد كان رجال الاستعمار الانكليزي ينشرون بين أولاد بلادهم قصة « بؤرة كلكوتا السوداء » ، فيفهمون فيهم أن أولاد الهنود أبناء أناس برابرة ، فهم أحط منهم ، وهم من جبلة أخرى . وطبعاً لم يكن هؤلاء السادة يعلّمون أطفالهم شيئاً عن مذبحة « آمريتسار » ، حيث قتل ثمانمائة رجل وامرأة وطفل من الهنود بالبنادق والرشاشات في حوالي خمس دقائق على ما يروى . كما وانهم كانوا لا يذكرون خبر بؤرة سوداء حقيقية ، وذلك يوم حُشدت أسراب من فلاحي « مبلار » في جنوبي الهند داخل قطار أغلقت جميع منافذه ، فماتوا اختناقاً

في رأيي ، أن ابن نانكين وابن نيويورك لا يفترقان فيما هو جوهري أصلي من طبع الانسان وأحواله وتركيبه . وأرى أنهُ يكاد يكون للإنسان في كل بلد نفس العواطف والمطالب والاهواء والقابليات العقلية الأساسية ، تتراوح ما بين حدّ أدنى وحدّ أعلى في درجة عامة جامعة لا تشذ ، طبعاً ، التطورات الفرعية ولا إنحراف المميزات الخاصة او ترقيها . وتكاد تحيط بهِ

في أغلب العالم نفس الصفات العامة في ظروف البيئة الطبيعية وفي خصائص المدنية والحضارة ونفس القواعد والخطوط والتطورات الرئيسية الواسعة في أنظمة الحكم والأنظمة الاقتصادية، ثم في التركيب الاجتماعي. وفي الأفكار والتحركات والمبادىء والمعتقدات الاجتماعية

إن لم يختلف النظام الاقتصادي قبل الاختلاف العام بين مجموع الناس الذين يعيشون فيه وبه. لكن حتى ولو اختلف هذا النظام بين الانسان، فيما نلاحظ ونعرف من حياته في شتى الحقب التاريخية والأوضاع الاجتماعية، متشابهاً في أصوله، في مطالبه الحيوية، في أحكام ضرورات ابقاء عليه، وفي جماع غرائزه وعواطفه من تأثر بالحب والبغض والجوع والألم والغضب والغيرة والامومة والجمال والموت وما شاكل، وذلك وإن اختلفت مظاهر التعبير عن هذه الأحاسيس وأشكاله، أو تباين الاتجاه المهذب فيها ومقداره ونوعه

غير أننا نجد في هذه المظاهر والاشكال وتباين الاتجاه ومقدار التهذيب في الغرائز والعواطف الانسانية ونوعه: مقياس رقي الانسان وتأخره أو انحطاطه

فان رجلاً يدفعهُ طلب الحياة إلى العمل من منتج وإبداعي أرقى طبعاً من ساكن الكهف الذي كان يقتات بالقوت، ومن الهرب وقاطع الطريق، ومن الذي يتنعم بأرباح الحرب. وأمّ تعبر عن حبها لطفلها بالاعتناء به على اصول علمية أكثر تهذيباً في عاطفتها من أمّ تعبر عن حبها بتصرف خرافي خشن قد يمرضه أو يقتله، وأمّ لا تفرّق في حنوّها بين الذكر من اطفالها والانثى اسمى جداً من ام تضطهد اناثها. وإن حبّاً مشتركاً متبادلاً بين رجل وامرأة أرفع من حب الاول لأمة جاهلة او لامرأة كالقينة، ومن حب الثانية لسيد يتمتع بها او لعاشق محترف تتمتع به فحسب. وإن التأثر بجمال رسوم ميخائيل انجلو ارقى كثيراً من التأثر بأيقونة بزالطية. وظهور غريزة القتال في قالب مهذب من مباراة رياضية او تنافس في اي ميدان من ميادين التفكير والعمل اسمى من ظهورها في ميدان حرب وحشية او سلوك إجرامي. ورجل حر يجادلك بالمنطق والبرهان وأصول الاحتكام يختلف جداً عن فاشيستي يمد يده الى المؤامرات الحديدية والدسائس الدامية ولغة المسدسات

إن في هذا التهذيب واختلاف الشكل والاتجاه في تظاهرات العواطف والغرائز سر أفضلية شخص على شخص وتقدم جيل ومدنية على جيل ومدنية. ومن يفتشون عن «الانسان الجديد» ومن يطلبونهُ فلا يجدونهُ، ومن ينكرونهُ ويتشوقونهُ أو يعشقونهُ خيالاً ويتغزلون به ومن يضربون بقبضتهم على الطاولة بتشاؤم عنيف وفلسفة عتيقة عن «حقارة الحياة الانسانية وأبدية الطبيعة الانسانية التي لا تتبدل» (مثل الاديب الفرنسي «آندره روسو» في سلسلة مقالاته التي نشرها في «الفيغارو» سنة ١٩٣٢ — ٣٣) كل هؤلاء لن يجدوا «الانسان

الجديد » . ولكنهم يجدون حتماً « الانسان المتحدد » في هذا الارتقاء التهذيبي والاجتماعي المستمر على سُلم التكامل

***

وعلى هذا ، فالانسان في كل مكان وزمان واحد ، وهو في كل زمان ومكان مع ذلك مختلف . هو أبداً قديم وأبداً جديد . هناك جذور عميقة تجمع كل الناس ، وهناك اغصان تختلف عن الجذور ، وتختلف بعضها عن بعض ايضاً . وهناك كذلك اشجار تتنوع . ولكنها كلها من تربة واحدة ، وكلها في حديقة الانسانية جميلة ، أو طيبة الثمر ، او مفيدة بأي شكل من الاشكال . كلها يستحق أحسن الاعتناء الممكن بها ، لتصير أحسن ما يمكن ان تكون ! كذلك أمر البشر ، حسبما يبدو لي

كل انسان اخو الآخر احب ام كره . أي رجل لو تعرّى عن مكتسباته وبان على اصله او طفولته يختلف كثيراً ، بأعضائه وتركيبه وكيانه من هيكل وعقل ونفس ، عن أي آخر . الناس مهما اختلفوا مؤتلفون . وربما كان الامبراطور شارل الخامس اكثر رقاعة من درويش افغاني ، كما ان قول الشاعر كيلنغ بأن « الشرق شرق والغرب غرب » لا يعدو ان يعني احد أمرين : فإما هو قول مبتذل وسقطة هراء بلوك (ويبدو لي ان هذه هي الحقيقة) ، وإما هو سكين وهمي يحاول تقطيع العالم وتفريقه الى اجناس وطبقات لا يؤلف بينها شيء الا القطيعة والشحناء ، وهي محاولة (صحَّت من الشاعر ام لم تصح) لا تنتهي الى شيء ، لمناقضتها طبيعة الاتجاه البشري ، سوى اللوك المبتذل ! هذا ، مع عظيم احترامنا لهذا الاديب العبقري ، وخصوصاً لقصيدته الشهيرة : « إذا » ، التي تلائم كل انسان في اي زمان أو مكان ...

بيد اني ، عند ما اقول أن الشرق والغرب واحد ، لا اقصد أن الفروق لا توجد بينهما . بل اقصد أنها موجودة . لكنها لا تقوم بينهما كسور الصين ، ولا كشيء اصلي ، ولا كقانون أزلي منزل لا يتبدل ، ولا كطابع تناقض يميت في محل اختلاف طبيعي عادي يقبل الالتئام والتبادل والتناسق ، طابع يحكم على الشرق في انفصاله وانعطاطه عن الغرب بأن يكون أمة له

الغرب والشرق مختلفان لان ظروفهما الفرعية والثانوية (ولا اعني بالثانوية التقليل من شأن هذه الظروف ، بل وضعها في مرتبة واقعية وصنف معين فحسب) قد تنوعت . قد كانت ظروف[1] الشرق في يوم ما مؤاتية له أن يسود الغرب ، كما عادت فآتت هذا فيما بعد ليسود

(١) لست أعني « بالظروف » هنا حالات مطلقة لاوضاع محياه فحسب . بل المقصود هو ذلك ، ولكن فوق ذلك أيضاً نتيجة على ارادة الانسان فيها ، وجهوده وفكره بحيث تتحول من ظروف « نيام » مميتة الى ظروف أخرى « منشودة »

الشرق . غير ان هذا التبدل إن هو الآ تبدل في ظروف وأوضاع اجتماعية وتاريخية يقع في المقدور البشري والممكنات الحادثة تغيرها ايضاً ، بحيث يتحول الشرق والغرب (مع وجود وبقاء وتطور نحو الاحسن في الاختلافات الظرفية الفرعية) الى كل متآلف ، بمعنى انهما يرتبطان ويتوحدان من حيث يتعاونان على الحياة ويخدمان بعضهما بعضاً ، عوضاً عن أن يقوم بينهما حرب وتفريق عدائي انقطاعي باسم قاعدة مصطنعة الازلية ، قاعدة (أوحتها إلى الشاعر حالات سطحية موقوتة بحقبة تاريخية معينة ، فظنها وضعاً أبدياً الى يوم القيامة) لا تؤدي إلا إلى تسويغ ترتيب استعماري ساد عززاً

وهكذا نرى من القول بأن الغرب والشرق واحد كون الشرقيين والغربيين لا يختلفون اختلافاً أصلياً أساسياً يجعل من المستحيل تآلفهم ضد عداوة مشتركة ، عداوة الطبيعة وبذور الشر الاجتماعي ، او يجعل الفوارق بين البشر مختلفة مفقودة النسب حتى تصبح بين الغربي والشرقي ، مثلاً ، في مرتبة الفارق بين الحيوان والانسان أو بين الحجر والنبات . والحق أننا لو أنعمنا النظر في اختلاف الجزئيات من اقليمية وغير اقليمية لوجدنا أن التباعد بين الجنوب والشمال أظهر منهُ بين الشرق والغرب . فالصقلي يفرق عن السكانديناڤي في نظري أكثر مما يبين المصري عن الالماني . لكن كل هذا في التفريق خلط لا يؤبه لهُ . نهو قد يكون سيأ ، مثلاً ، لأن يتخذ ابن جاري الاسمر الطويل القامة قِصَر قامة شقيقه الاشقر ، أخيه من أمه وأبيه ، حجة لهُ على جعله عنده خادماً مرهقاً « بيلاش » . وهذه هي النتيجة المنطقية لبعض نواحي « البتشية » ولآراء الكونت « دي جوبينو » السلالية ، وللسياسة « الجنسية » الرجعية الهدامة التي تستند الى قواعد نظرية لها في تلك النواحي وتلك الآراء

***

الخلاصة ، الانسانية كلها واحدة متحدة في طلب حياة أرقى وأسعد . وكل فارق في هذه الحالة يصبح : أما ميزة وطنية وشمية جبلية ، وإما مجرد علامة واسم

حاشية على « الشرق والغرب »

لما رأى ابن الرومي خبازاً « يدحو الرقاقة » ، أخذ يتأمل كشاعر ذكي في كيف يتسع الرغيف من كل أطرافه حلقة بعد حلقة ، وقارن ذلك بحجر يقع في الماء ويرسل الدوائر واحدة تلو الأخرى . وقد يكون من ذكائه أيضاً بأنهُ فكر وتذكر بأن الحياة أيضاً دوائر تتفرج

الواحدة فيها عن الأخرى ؛ بل كُرات مجسمة تبطن بعضها بعضاً حتى اللانهاية من جهتي الداخل والخارج لدائرة كل كرة . قد يكون خطر بباله بعد ذلك ان كل انسان ، بل كل شيء على الاطلاق ، حلقة بذاته ينطوي على حلقات حلقات وتنطوي عليه حلقات حلقات ، وأن كل بضعة أناس ، في عائلة او شركة أو جمعية أو قرية او غير ذلك ، يؤلفون حلقة تشتمل على الانسان الواحد ، كما ان حول كل وحدة من « بضعة أناس » حلقة أوسع : كالدولة مثلاً حولها العالم ، وحول هذا الكون ، وحول الكون ما لم نكتشفه بعد أو يمكننا الجزم به من دون أن نكون مضحكة العلم !

***

ثم لعل شاعرنا الفيلسوفي الطبع قد عرف ، وهو يجاري هذا التأمل البسيط ، أن كل شيء منفصل ، كل شيء حلقة محدودة بحلقات ، فأدركته بعد ذلك خاطرة عبقرية على سذاجتها ، خاطرة دونها ابن خلدون على ما اذكر في قول معناه : « كل شيء مهما اختلف مع غيره فهو مؤتلف ومهما ائتلف فهو مختلف ! » وأخيراً عساه لو أدرك زماننا وسمع زميلاً له « بريطانيا » من أقاليم الظلمات الغربية يصيح : « الغرب غرب والشرق شرق . . . لا يجتمعان ! » — عساه كان يقول له : « خسيء شيطانك البليد ! الشرق والغرب في كل نقطة على الارض . وبما كنها في كل بقعة انسان يستطيع ان يتحول ويتغير ويتقرب ، وهو بهذه الاستطاعة واحد ونسيب بعضه لبعض ، فكيف بها وبما تتناوله عندكم من هذه السيارات والطيارات والقاطرات والباخرات وجميع جناياتكم التي قدمتموها من ميت الجماد ؟ عجباً من فكرك القاصر ، أو تجهل الشطريع !.. »

ولكان كل الحق مع شاعرنا فيما يتبرع به صاحبه . ذلك لانه ، وهو المنشد الملهم ، والعربي الشرقي ، يدرك أن العواطف والغرائز (المتحدة مع الانسان من زمن الكهف والتبوت) وقد اختبرها جيداً ، هي عروة واحدة تجمع بين الشرق والغرب ، وأن المجتمعات والمدنيات المتوزعة بينهما قامت على أساس واحد من نشوء ووظيفة وحكومة وتشكل ، وأن أظهر مظاهرها الخاصة ، وهي أديانها ، كانت دائماً ، ورغم تلون صورها وطقوسها ، واحدة في أسباب النشوء ودوافع التغير وفي الوظيفة . واحدة في ذلك ، فلا تجمع حتى بين ما تم نموه من مدنيات الغرب والشرق فحسب ، بل أيضاً بينها وبين حضارات المجتمعات الابتدائية عند قبائل افريقيا وجزر الباسيفيكي مثلاً

فلسفة المعارضة

في نظام الحكم الديمقراطي

لا تدرك الامم الفائدة من نظام الحكم القائم على المناقشة الا اذا توافرت لها الاساليب التي تمهد الطريق لتطبيق النتائج التي تسفر عنها المناقشة . لذلك كان النظام الحزبي اساس الحكم النيابي . حيث يكون الخلاف بين الاحزاب صحيحاً يتناول الشؤون الحيوية ، فاصطدام الرأي بالرأي لا بدّ ان يقدح شرراً يضيء . فالحاجة الى اقناع الغير ، تقتضي نوعاً من الريادة العقلية . والاقطاب الذين يسعون الى تعزيز آرائهم بالحجة ، يفعلون ذلك لانهم يبغون اولاً ان يستوضحوا هذا الرأي وثانياً ان يحرزوا تأييد غيرهم له . فاذا كانت الدولة قائمة على فلسفة سياسية واجتماعية متسقة الجوانب ، فليس ثمة غير التحليل ، سبيلاً الى وزن الآراء والمفاضلة بينها

هذه هي الحجة الاساسية التي يسوّغ بها نظام الحكم الديمقراطي . فالحكومات الدكتاتورية لا يسعها ان تعرض قواعدها الاساسية ، لمحك التحليل والنقد ، لان اساسها ان هذه القواعد فوق كل نقاش ، فهي مضطرة بالمنطق المستوحى من طبيعة كيانها ان تحسب كل نقد موجه الى أسسها ضرباً من ضروب السعي الى تدميرها . فللروسي ان ينتقد انتاج مصنع من مصانع السيارات الضخمة التي انشئت في روسيا حديثاً ، ولكن ليس له أن يهاجم الاشتراكية الماركسية وهو آمن مطمئن . وللالماني ان يتمسك بأن اوربا لا يسعها ان تخوض غمار حرب اخرى ، ولكن ليس له أن يحسب اضطهاد اليهود ، عملاً شديد القسوة ، او النزعة الدولية ميلاً طبياً الى التفاهم . وللايطالي ان يبدي ما يعنّ له من الآراء في المكتشفات الأثرية ولكن ليس له ان يؤيد من منبر الكلام القول بأن الدولة النقابية ، ستار يختفي وراءه الرأسمالية الثائرة من وجه الديمقراطية الاقتصادية . فالدكتاتورية ، بطبيعتها لا تسمع الا الصوت الذي تحب ، واسلوبها في ذلك سهل كل السهولة ، ذلك انها تخفت كل صوت آخر

الا ان الانسان في جهاده الطويل ، تعلّم ان الرأي اذا فتنةٌ هنيهةً فلن يدوم القمع . ولولا ذلك لما فازت المسيحية على ما منيت به من الاضطهاد الوثني في عهدها الاول . ولا الافكار الحرة على المسيحية المتزمتة في العصور الوسطى . فكل رأي جديد في التاريخ ، يعرب عن حاجة صحيحة بعيدة الغور واسعة المدى في الطبيعة البشرية ، لا بد من ان يفوز على كل سعي ، لحصره وقمعه . وليس ثمة ريب في ان ظهور الحق ، عمل بطيء وطريقه طريق وعر ، ولكن الازدراء به ، والتحامل عليه ، اقصيا في ما نعرفهُ من شؤون التاريخ ، الى انقلاب الذين ابوا ان يروه

فالأمة المنظمة تنظيماً ديمقراطياً صحيحاً تستطيع ان تصون كيانها من مساوىء الحكم

الدكتاتوري ، وانما يجب ان تبيح حرية المناقشة ، وان تسهّل انتقال اداة الحكم من يد حزب الى يد حزب آخر . فكلُّ دليل تقيمهُ على وجوب النظام الدمقراطي ، هو دليل تقيمهُ كذلك على وجوب المعارضة

والأساس النفسي لهذا الرأي ليس بعيد التناول . فالناس يختلفون في بيئتهم ونشأتهم ورغباتهم . فإما ان تقدع الحكومة رغبات الناس المخالفة لرغباتها ، وإما ان تسلّم بها . والحزب الاجتماعي غرضهُ تنظيم الاجتماع على اساس الرغبات التي تساور الناس . فالرأي يفرض على الجماعة بقدر ما ينطوي عليهِ من احساس الجماعة بحاجتها اليهِ . والزعماء الذين يؤمنون بآرائهم لا يسعهم ان يقفوا مكتوفي الايدي دون الدعاية لها والسعي الى فرضها وتحقيقها

فالمناقشة في الحكومة الدمقراطية ، هي السبيل الذي يسير عليهِ الناس الى تحقيق رغباتهم . وليبنِ الحزب السياسي في النظام الاجتماعي الدمقراطي ، الأ عزلة « معسار » آراء ، تنبثق في اذهان اقطابهِ ونفوسهم ، فيسعى ان « يبيعها » الجمهور اي ان يقنع الجماعة بصحتها وضرورتها. فهو لذلك يختار من الآراء والمذاهب ، ما يستميل الجماعة الى تأييده ، اذ ما الفائدة من آراء لا تحسُّ الجماعة انها لازمة لحياتها كما تريدها ، وعند ذلك يعمد الحزب الى بسط هذه الآراء في ثوب خلاّب معتمداً في ذلك على فنون الاقناع والاستهواء ، وهدفهُ اقناع الجماعة بأن حق هذا الحزب في تسلّم مقاليد الحكم ، اكبر من حقّ الحزب المقابل

هذا الاسلوب ينطوي بطبعهِ على نقائص ، فهو بطيء ، ولم يعرف في تاريخ الحكم النيابي ، ان حزباً بسط آراءه مجرّدة عن الزخرف معتمداً على عقل الجماعة دون شعورها في الموازنة بينها وبين آراء الحزب المقابل والاختيار بين آراء الفريقين . والغالب ان الحزب يبالغ في تصوير الفوائد التي تنجم عن تطبيق آرائهِ ، وقلما يتورّع عن افراغهِ في قالب يزعم انهُ جزءٌ من نظام الكون الذي لا يتبدل . وهذه نقائص حقيقية . ولكن مع ذلك لم يعرف البشر نظاماً آخر خيراً من النظام الحزبي في الحكم النيابي ، لاجراء التحوُّل السلمي في حياة الجماعة .

الاّ ان نجاح هذا النظام يقتضي شيئاً اساسيًّا وهو ان لا تكون الهوّة بين رأيي الحزبين كبيرة ، بحيث يمتنع التفهم المشبع بروح التساهل ، لانهُ اذا كان الاختلاف كبيراً بحيث يمتنع التفهم والتساهل كالفرق بين الشيوعيين وخصومهم في روسيا فالنظام الحزبي مستحيل

ثم ان فائدتهُ تقلُّ الى ادنى حدٍّ اذا تعددت الاحزاب ، لأن هذا التعدُّد يحول دون وضوح القصد الذي تتجهُ اليهِ الخطط السياسية . فكثرة الأحزاب في فرنسا الآن — وفي المانيا وايطاليا قبل قيام النظام الفاشستي فيهما — من شأنها ان تحل السياسة القائمة على المناورة الحزبية ، محل السياسة القائمة على نضال الافكار والمذاهب الاساسية . والنتيجة اللازمة لذلك ، اجتناب الخوض

في المسائل الاساسية اذ من المتعذر جمع طائفة واحدة من الاحزاب على صعيد واحد منها . وهذا يفضي الى المساومة وقلة الانسجام والضعف . ذلك ان تعدّد الاحزاب يقتضي انشاء وزارات مؤتلفة ، والوزارات المؤتلفة ، قلما تمس بالآراء الاساسية ، التي تبنى عليها خطة سياسية منسجمة ، عنايتها باجتناب الاخطار التي قد تفضي الى سقوطها . وكل حزب في كل وزارة مؤتلفة ، يصرف جانباً كبيراً من تفكيره ، الى تأثير مسلكه في جمهرة الناخبين ، وعلى قدر ما يفكر الحزب في مصلحته الانتخابية ، يضعف ولاؤهُ للوزارة المؤتلفة ، فيضيق دونهُ الوقت ، وتعوزهُ الجرأة في معالجة المشكلات الاساسية

فالنظام الدمقراطي يقوم على قواعد واضحة كلّ الوضوح او جليّة . فالامة يجب ان تكون متفقة على الاهداف العليا لحياتها القومية . وليس بين طوائفها من اختلاف في الرأي يبلغ مبلغ الاشياء التي يفضل المرء أن يموت في سبيلها بدلاً من خسرانها . على هذا الاساس يختلف الرأي في سبل التحقيق فقط ما هو من قبيلها . وهنا يجب ان يكون الاختيار واضحاً كلّ الوضوح للجمهور . فيعلم انهُ اذا اختار هذا الحزب فقد اختار معهُ طريقة معيّنة . فالمبادىء تقترن باسماء الرجال وتبديل الرجال الذين في مناصب الحكم يعني تبديلاً في المبادىء . فاذا توافرت هذه القواعد ، استطاع النظام الدمقراطي ان يسدي للجماعة خدمة كبيرة الشأن

فاذا كانت الفروق بين ابناء الامة في ما يخصّ التنظيم الاجتماعي ، فروق كمّ لا نوع ، فهذه الفروق يمكن حلّها حلاً سلميًّا بالاتفاق بعد البحث والنقاش

في هذه الحالة تكون الدمقراطية النيابية خير نظم الحكم التي تنطوي على امل الاستقرار . ولكن نجاحها مرهون بقيام حزبين متكافئين ، بينهما فرق كافٍ يجعل الاختيار المطروح على الجمهور واضحاً ، على ان لا يكون الفرق بعيد الهوّة ، بحيث يتنكر كل حزب للآخر تنكّر الغريم لغريمه ، فيراه غير أهل لتقلد الحكم ويسعى الى منعه بالقوة

اذا صحّ ذلك فالحكومة والمعارضة ، سدى النظام الدمقراطي ولحمتهُ . كلٌّ منها لازم للآخر . فقيام المعارضة على اساس انها جديرة بالاحترام جدارة الحكومة به ، لانها قد تصبح هي الحكومة بين آن وآخر ، هي الصفة الاساسية التي تميز الدمقراطيات من الدكتاتوريات

فما وظيفة المعارضة ؟

قيل ان دزرائيلي وصفها بقوله المشهور : «وظيفة المعارضة ان تعارض» . وهو قول يكاد يكون جامعاً مانعاً ولكن في حدود فهم كلمة « ان تعارض » على وجهها الصحيح

فمن الثابت في تاريخ الامم واخلاق الشعوب ، ان هيئة منظمة من الناس ، لا تستكين الى اقصائها عن مقعد الحكم ، وانما تندفع بطبيعة الحال الى احصاء الاخطاء والعثرات على الهيئة

المنافسة لها المتربصة فيه . ولكن من الثابت ايضاً في تاريخ نظم الحكم ، ان النقد السلبي لا يستميل الناخبين والحزب الناقد لا يفوز بمقاعد الحكم لمجرّد انهُ هاجم الحكومة القائمة

فوظيفة المعارضة الصحيحة في الحكم النيابي ، نقد اعمال الحكومة القائمة ، على اساس برنامج سياسي اجتماعي تقوم المعارضة بتطبيقهِ اذا وليت الحكم ، ويستطيع اقطابها اقناع الشعب بانهُ خير من برنامج الهيئة المتربعة في دستهِ . فعلى المعارضة أن تقنع الناخبين من خلال نقدها ان تقلّدها الحكم ، يفضي الى نتائج متعذرة على الهيئة المنافسة لها ، لان الفلسفة السياسية والاجتماعية التي تستند اليها الحكومة مقصرة عن فلسفة المعارضة ، ولان الحكومة ارتكبت اخطاء في تطبيقها

فحزب العمال فاز في انتخابات سنة ١٩٢٩ في انكلترا لان الناخبين كانوا مقتنعين ، ان حكومة المحافظين ، كانت عاجزة عن فهم مشكلات السلام الدولي والمشكلات الاجتماعية الناشئة عن الحضارة الصناعية ، وان حزباً يستند الى نقابات العمال ويستمد أقطابهُ من رجالها اقدر على فهم هذه المشكلات من حزب الاسياد . والفوز العظيم الذي أحرزهُ المحافظون سنة ١٩٣١ نشأ عن خيبة امل الناخبين في ما رجوهُ من حكومة العمال من ناحية وعن اقتناعهم بأن حكومة تضم الرأسمالية تستطيع ان تنقذ البلاد من الازمة التي اخذت البلاد الانكليزية بخناقها حينئذٍ من ناحية اخرى

ولعلّ ابلغ مثل على المبادئ التي اوجزناها في ما تقدّم تاريخ انكلترا السياسي منذ سنة ١٩٣١ الى الآن . ان المعارضة الرسمية ، عارضت ما وجدت الى ذلك سبيلاً ، ولكن معارضتها لم تكن انشائية ، اي لم تكن مستندة الى مبادئ تنبع من فلسفة سياسية اجتماعية متسقة الجوانب يمكن ان تشعر الناخبين بأن تطبيقها يفضي الى حالة خير من الحالة القائمة . وذلك لتضعضع أحزاب اليسار في انكلترا في السنوات الاخيرة وتفرق كلمتها واضطراب مبادئها . والانتخابات الفرعية تؤيد ذلك . فان المؤيدين لممثلي الحكومة القومية قلوا قلةً تذكر الا ان الناخبين مع تبرمهم بالحكومة القائمة لم يبلغوا بعد درجة من الاقتناع بأن المعارضة تستطيع ان تنهض بأعباء حكم قائم على مبادئ وقواعد خير من مبادئ الحكومة القائمة وقواعدها

فالمعارضة الانكليزية في الست السنوات الاخيرة قد « عارضت » ولكن معارضتها لم تكن دليلاً على انها تملك فلسفة سياسية اجتماعية ، تجعل ولايتها للحكم خيراً يتطلع اليهِ في بضع السنوات القادمة . والمعارضة للرئيس روزفلت ، من اليمين ومن اليسار تجري هذا المجرى عند تشريحها

ولا يمكن ان يكون اي نقد لاية حكومة نقداً فعالاً الا اذا اتصف بصفتين . اولاهما : ان يكون نقداً للخطط العامة ، نابعاً من شعور عام سائد في جمهور الناخبين ، وثانيهما : ان يكون ممثلاً في المجلس النيابي بقوة تقسر الحكومة القائمة على أخذ ما تقولهُ المعارضة بعين الاعتبار

اما في ما يتعلق بالصفة الاولى ، فمن الواضح ان حكومة من الحكومات لن تبلغ مبلغاً من الاجادة

بعضها عن النقد . بل ان الشعور بان الحكومة ادركت هذه المرتبة، يفضي الى التراخي وعدم الاهتمام بشؤون الجماعة الحكومة . ولكن يجب ان نذكر ان الحكومة تستطيع ان تتجاهل نقد ناقديها اذا كان ذلك النقد تعبيراً عن رأي او خطة لا يحركها الجمهور ولا يعطف عليها فمن العبث ان يهاجم الاشتراكيون الاميركيون الرئيس روزفلت لان مشروعاته لم تبلغ الدرجة التي يبغونها هم من التطرف . لان هذا الرأي لا يعطف عليه جمهور الناخبين الاميركيين . ومن العبث كذلك ان يزعم المحافظون الاميركيون ان مشروعات الرئيس روزفلت بلغت مبلغاً خطراً من التطرف، لان الشعب الاميركي في الغالب، مقتنع بوجوب تبديل موسوم بسمة العدل الاجتماعي فهجوم ارباب المال والصناعة على الرئيس، من دون ان يصحب هذا الهجوم برنامج انشائي لاصلاح بعض ادواء الاجتماع الاميركي، عبث في عبث الآن، ولاسيما لان الحوادث الاخيرة في اميركا اثبتت إفلاس مراجع روزفلت هؤلاء في معالجة هذه الادواء

اما في ما يتعلق بالصفة الثانية، فمن الواضح ايضاً ان النقد لا يؤدي الغرض المقصود منه، الا اذا كان وراءه في المجلس النيابي قوة يعتد بها . فكل مناقشة تمنها اكثرية حامية للحكومة القائمة تضعف من عناية الجمهور بالشؤون المطروحة على بساط البحث . وتصبح الحكومة ترى المعارضة، مرتبة لا بد من اجتيازها بدلاً من ان تحسبها تشريحاً لخططها لا بد لها من اقامة وزن له . فالجمهور قلما يعني بحلبة ملاكمة، اذا ادرك ان احد المتلاكمين لا بد متفوق على خصمه

ثم ان الجمهور يود، غير واع، ان يدرك ان هذه الانتقادات التي توجهها المعارضة الى الحكومة، هي خطوة تخطوها المعارضة نحو مقاعد الحكم . وليس ثمة معارضة تستطيع ان تنشيء جوًّا من الاحترام لاقوالها الا اذا ثبت انها تكسب رويداً رويداً تأييد الرأي لها . فاذا كانت قوتها ضئيلة بحيث لا يعتد بها تعذر عليها ذلك، واكبر ما تصاب به معارضة أن لا يعتد بها . لانهُ اذا فقد حزب قدرته على الهجوم هجوماً فعالاً ضيع سر وجوده في اذهان الناخبين، على نحو ما وقع لحزب الاحرار الانكليزي

وهذا لا يعني ان الحكومة التي لا تجد امامها معارضة ممثلة في قوة فعالة في المجلس، يحق لها ان تدير الاذن الصماء الى اقوال المعارضين . لان هذه الحالة قد تفضي، وهي لا تدري، الى اتساع الهوة بينها وبين الشعب . فوزارة لويد جورج سنة ١٩١٨ ووزارة مكدونلد القومية سنة ١٩٣١، من احدث الامثلة على ذلك . فكلتا الوزارتين انقذت انكلترا من ازمة عصيبة، فحسبتا ان تفوقهما الانتخابي سيدوم لان الامة ولا ريب ستؤيد مرشحيها، اعترافاً بما كان للوزارة من فضل في اجتياز الازمة . وهذا فيه خطأ في فهم الجماعات، لان احكام الجماعات تستند على الاكثر الى ما يحركها الآن دون ما حركها في الماضي البعيد او القريب